

الشخصية، أو الترجمة الذاتية في حد ذاتها، من حيث القدم والوجود، أو من حيث الحداثة والتبلور الفني. ولا خلاف بين الباحثين في أن هذا الجنس مطروق في الأدب العربي القديم، وللعرب فيه إنتاج يعكس مدى اهتمامهم به، وصلنا مضموماً في كتب الطبقات والتراجم. ولا نلاحظ بين هؤلاء الباحثين سوى اختلافات جزئية تتعلق، في الجمل، بطبيعة هذا الاهتمام، مع الإلحاح على أن اتصال العرب بغيرهم من الأمم، من خلال الترجمة في العصور القديمة، أو من خلال الاحتكاك المباشر بالحضارة الغربية، يمثل عنصراً أساسياً في تطور الفن المذكور لديهم.

أما الزاوية الثانية، فهي المتعلقة بمنهج البحث. إذ من الملاحظ أن استناد هؤلاء الباحثين، في التدليل على وجود السيرة الذاتية بالمعنى المشار إليه في الفقرة السابقة، لا يكون إلا بالتاريخ، وتاريخ الأدب على وجه الخصوص. فهو الحاضن للأخبار والتطورات، وهو، بمعنى ما، التراث الذي يجري البحث فيه قصد الوقوف على العناصر الكاشفة للوجود أو للعدم.

وليس من الصعب أن نستنتج، أن الغاية من الاستناد إلى التاريخ تتمثل في هدفين إثنيين: التحقق من إمكانية وجود السيرة الذاتية، مبثوثة هناك وهناك، وإيراد الشواهد النصية (كتاب مفرد، أو ضمن مجموع) لهذا الكاتب (العالم، الفقيه، الفيلسوف) أو ذاك.

وبطبيعة الحال فإن المعيار الذي يجعل الاستناد إلى التاريخ ممكناً، هو نموذج السيرة الذاتية الأوروبية ظهوراً وتطوراً. وهكذا فإن التسليم بوجود السيرة الذاتية في الأدب العربي القديم أو الحديث، لا يكون إلا من باب الاعتراف، الضمني أو الصريح، بالخصائص النوعية التي حققها الجنس السيرذاتي في الآداب الأوروبية والإنجليزية بالخصوص. وهو ما قد ينطبق أيضاً على تماثل الدوافع والبواعث، تاريخية واجتماعية ونفسية، التي سهلت ظهور هذا الجنس هنا أو هناك.

أما الزاوية الأخيرة، فهي المرتبطة بالخلاصات المستفادة من الزاويتين السابقتين، وأعني بذلك الإقرار النهائي بوجود السيرة الذاتية في الأدب العربي القديم، في غياب أي تعريف معياري يقعدها. وقد بلور الغامدي شيئاً من ذلك، ولكنه ساير فيه (ستل) دون إعمال النظر في مقوماته المستخلصة، بطبيعة الحال، من دراسة النصوص السيرذاتية الأوروبية بشكل عام. ومن باب الافتراض أن نقول هنا، إن دراسة النصوص السيرذاتية العربية يمكن أن يقود، إذا ما توفرت له الأسباب النظرية والمنهجية، إلى استخلاص تعريف قد يكون مفتاحاً لكثير من الالتباسات المحيطة بتاريخ السيرة الذاتية العربية.